

الآشورية والآرامية لغة وحضارة

د. علي فرج
جامعة بيكوكا - ميلانو

الآرامية هي إحدى اللغات السامية المهمة والتي تشمل مجموعة لغوية غنية ومتعددة، تنفرد إلى لهجات نطقت بها القبائل الآرامية المنتشرة في مختلف أنحاء الشرق الأوسط.

نبذة عن أصل الآراميين ونشأتهم وسماتهم اللغوية والحضارية:

يتمثل أصل الآراميين ببساطة ووضوح في سلسلة من نمو مجاميع قبلية سامية شبه بدوية خلال نهاية الألف الثاني قبل الميلاد في مناطق اُتسمت بالجفاف النسبي بين الصحراء السورية العربية ومنخفض الفرات برافديه، وهما: الخابور والبليخ، أي في مناطق وتجاويف هامشية بعيدة عن التقدم المدني وعن الإهتمام بالزراعة الكثيفة الدائمة، فضلاً عن تطرفها عن المسارات التجارية الرئيسية الإقليمية.

دعونا بدايةً نتكلم هنا عن أصل الآراميين، وعن أهم العوامل السياسية والخصائص اللغوية، فضلاً عن التوزيعات الجغرافية التي رسمت وساهمت جميعها في تحديد وبلورة وجه هذه الحضارة المهمة في تاريخ البشرية.

إنّ أول إشارة تاريخية لمجاميع سياسية عُرفت بإسم الآراميين كانت في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، إذ تصف لنا حوليات الملك الآشوري تجلت بلصر الأول (١١١٥ - ١٠٧٧ ق.م) عن سلسلة من الغزوات العسكرية التي حدثت في المنطقة السهلية والواقعة غرب نهر دجلة حتى حدود نهر الفرات، حيث واجه

الجيش الآشوري مجاميع مسلحة عرفت بـ (أخلامو) أي الآراميون، والتي هزمها هذا الجيش مع مطاردتها على طول الخط الرسوبي حتى نهاية كركميش، ولم ينته الأمر إلى هذا الحد، بل تبعها ليلاحقها حتى عقر موطنها الواقع على جبل البشري^١.

إذن، فمن هذه الإشارة الأولى التي زدنا بها الآشوريون والتي ترينا مجموعة متسلسلة من الحلقات والعلاقات المهمة التي من شأنها مساعدتنا في دراسة وتقييم تاريخ الآراميين وبشكل مقبول، إذ لطالما شكّل الآراميون مادة انثروبولوجية لغوية مستقلة بحد ذاتها، منذ ذلك العهد وحتى سقوط الإمبراطورية الآشورية، تحديداً في نهاية القرن السابع قبل الميلاد، بل يمكن القول بأن هذه الوحدة اللغوية استمرت ومضت وتجسدت اليوم في ثوبها الجديد، ألا وهو اللسان السرياني بلهجاته الجميلة، لسان غني بتركيبه ومفرداته وصوره البلاغية، وهكذا كان كريماً مع الآخرين، حيث انتهلت من مناهله العديد من اللغات السامية والهندو أوروبية، لتبقى متأثرة مدينة لها حضارة ولغة.

وتكمن هنا أهمية المعطى الجغرافي وتأثيره على المنطقة، أهمية إستراتيجية اكتسبتها بفضل جبل بشري، والذي ورد ذكره ضمن النصوص القديمة والذي يعود تاريخه إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد بوصفه مركزاً أو مقراً مؤقتاً ترتاده مجاميع ذات طابع اجتماعي حضري تعتمد في معيشتها على تربية المواشي، حيث يعدّه السومريون الموطن الأصلي للأموريين وتطلق عليهم المدونات السومرية

١ يقع هذا الجبل في منطقة الجبال الوسطى من بادية الشام السورية، الواقعة إلى الشرق من سهل حمص وحماة، والممتدة حتى منطقة الفرات غربي مدينة دير الزور اليوم، وهو عبارة عن كتلة كلسية، يبلغ ارتفاعه حوالي ٩٠٠ م. تسوده ظروف مناخية قاسية شبه جافة. للمزيد انظر: Pappi, The Jebel Bishri in the Physical and Cultural Landscape of Ancient Near East, in (KASKAL), 3, 2006, pp.241-56.

٢ الانثروبوجيا اللغوية: هو علم يعنى بدراسة العلاقات بين لغات الشعوب وثقافتها.

اسم (م / ر ت و) أما الأكديّة فتسميهم (ام ورُرم) أي الغربيون أو أهل الغرب. والأموريون هم أقوام رعاة رحّل، كان حمورابي من بين أشهر ملوكهم، أمّا لغتهم فتنتمي إلى المجموعة السامية الشماليّة الغربيّة، فهم بدؤوا بالتغلغل نحو جنوب وادي الرافدين خلال (القرن ٢١ ق.م) وساهموا وبشكل فاعل في سقوط سلالة أور الثالثة. أمّا المرحلة اللاحقة للأموريين فتتمثلت بحقبة ماري (القرن ١٨ ق.م) حيث خلفت لنا العديد من الشواهد والأخبار، وذلك عبر بعض رسائل من الأرشيف الملكي الخاص بمدينة ماري الواقعة ضمن منطقة الفرات الأوسط، علاوة على ذلك، فقد كشفت الدراسات البيئية والتنقيبات الأثرية الأخيرة التي أجريت على جبل البشري والمنقسم إلى أكثر من قمة واحدة عن حقيقة ضعف وندرة الاستثمار الزراعي الدائم على سطح هذا الجبل، وذلك لأسباب مناخية وجيولوجية.

وعليه فمن خلال هذه المصادر تتضح لنا صورة أولية عن طبيعة حياة الآراميين آنذاك، فقد اعتمدوا على ما يبدو، خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد على الرعي المتنقل ممثلين بهذا بناءً اجتماعياً وقبلياً وعشائرياً.

وفيما يتعلق تحديداً بالتسمية (أخ / م و) التي طالما تلازمت مع تسمية الآراميين ضمن حوليات الآشوريين، حتى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، والتي يمكن مقارنتها مع الكلمة العربية (غلام) التي تفيد: شاب، بل يراد بها: محارب. إذن، فهي صورة تصف وتعكس القابليات والتنظيمات ذات الطابع العسكري القائم على النهب والسطو. ومن الملاحظ، فقد تضمنت الوثائق العائدة لحقب سابقة لفضة (أخ / م و) بمفردها ودون أي إضافة، وذلك تحديداً لما ذكرته الحوليات الآشورية في عهد الملك (أريك - دان - إيلي) (١٣١٦ - ١٣٠٥ ق.م، التي وردت ضمن رسالة للملك الحثي حاتوشيلش الثالث التي كان قد كتبها إلى نظيره البابلي كادشمان - أنليل الثاني (ملك كشي عاصر اداد نراري الأول ملك الدولة الآشورية وحاتوسيليس الثالث ملك الحثيين، كما وجاء ذكر (أخ / م و) لوحدتها، في رسالة أرشيفية تعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

نفهم من هذا، أن الآراميين تميزوا وعرفوا من خلال العامل الإقتصادي الذي اعتمده في عيشهم كمجاميع قبلية والتي تمتعت بعلاقات إتسمت بالتعاون السلمي مع الدول المجاورة تارة، وبالعدائية تارة أخرى، وعلى ما يبدو فإنه وبمرور الزمن، انضمت تدريجياً إلى هذه القبائل مكونات حضرية لتعيش سوية فيما بعد، ومثال ذلك، القبائل الثائرة المعروفة بإسم: (خ / ب ي ر و) ويعود هؤلاء إلى حقبة العمارنة، وعرفوا بكونهم مجاميع كادحة فقيرة بوجه عام^٣.

عنصران آخران ميزا الآراميون، أولاهما: العامل اللغوي والحضاري، فمن أهمها، أسماء رؤساء قبائلهم الأوائل التي نقلها لنا الآشوريون، فضلاً عن الكم الهائل والمستمر من المساهمات اللغوية الحديثة التي يمكن تتبعها عند الأموريين خلال نهاية القرن الحادي عشر، والتي استخدمتها بعد ذلك اللغات واللهجات المجسدة في كتابات خطية في بلاد آشور خلال الألف الثاني قبل الميلاد. ومما يلاحظ من جهة أخرى، أن لغة النصوص الآرامية الأولى التي كتبت بالحروف الآرامية (بداية القرن الرابع قبل الميلاد) أنها بدأت تفرز بوضوح ملامح وسمات لغوية محلية ولهجية تنتمي بلا شك إلى الآرامية الأم، كما أنها أوضحت بدورها التبادل والإتصال اللغوي مع اللغة الرسمية والمهمة للشرق الأدنى آنذاك، ألا وهي اللغة الأكديّة بشقيها: (الآشوري والبابلي) وذلك ابتداءً من التغلغل العسكري والسياسي لأرافدي وحتى سقوط نينوى عام ٦١٢ ق.م.

اللغة الآرامية وعلاقتها باللغّة الأكديّة:

اللغة الآرامية كما هو معروف تمثل تنوعاً غنياً من مجموعة اللغة السامية الشمالية الغربية، هكذا لتعود بجذورها أو أصولها الأمورية البعيدة. واللغة

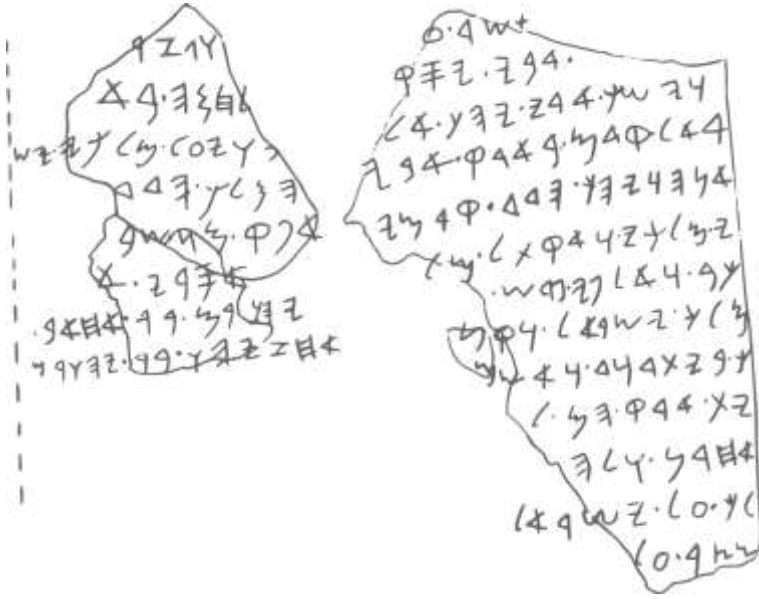
٣ للمزيد انظر: الذنون، عبد الحكيم، تأريخ الشام القديم، دمشق- الطبعة الأولى، ١٩٩٩،

الأمورية هي اللغة الموثقة بشكل أساسي في سجل أسماء أشخاص مع عدد موجز بمواضيع في نصوص مسمارية بين سلالة أور الثالثة وحقبة ماري القرن ٢١ - ١٨ ق.م، وهي لغة يمكن عدّها تنوعاً إبداعياً متطوراً نسبة إلى المجموعة السامية الشرقية السابقة (الأكديّة، وجزء من اللغة الآبلية)، حيث يمكن أن نستخلص من اللغة الأمورية جميع الظواهر اللغوية، وذلك من خلال شواهد المتعددة والمتمثلة باللغات واللهجات أو آثار نصية بسيطة، وانتشرت هذه اللغة تحديداً في المنطقة السورية الفلسطينية خلال الألف الثاني قبل الميلاد، وتعود أصول ظواهرها اللغوية الجديدة إلى اللغة الأوغاريتية (١٤-٣ ق.م) (نسبة إلى أوغاريت التي تقع على أطلال المدينة القديمة أو أوغاريت الموجودة في موقع رأس شمرا إلى الشمال من مدينة اللاذقية بسوريا)، والتي عرفت عن طريق كتابات منقوشة على ألواح طينية في أطلال المدينة أوغاريت وبنظام أبجدي يحتوي على ثلاثين حرفاً منها حرفي علة. والكتابة الأوغاريتية هو نظام استنبط بعد التأهيل من الكتابة المسمارية. أما الفينيقية اللغة الأبجدية الأخرى التي تقع ضمن المجموعة السامية الشمالية الغربية، فهي تتمتع بنظام أبجدي أيضاً، حيث تمكنت من إبراز ظواهر متطورة، منها على سبيل المثال: التقليل في السوابق الفعلية والإدغام الصوتي. وكنتا هاتين اللغتين حملتا إرثاً غنياً لجميع المنطقة يعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، إذ سميت بالمجموعة الكنعانية وأهمها اللغة العبرية التي استخدمت في فلسطين، حيث مصدرها نصوص مختلفة كتبت على مواد عديدة، ولعل التوراة من أهم مصادرها^٤.

ويرى أن هذا النظام الجديد من الكتابة ربما يعد الأساس الأول الذي انطلقت منه ونشأت جميع الأبجديات السامية اللاحقة بالإضافة إلى علامات تدل على

٤ حول اللغات السامية وتفصيلها، انظر: موسكاتي، سباتينو، مدخل إلى نحو علم اللغات السامية، ترجمة مهدي المخزومي وعبد الجبار المطليبي، بيروت ١٩٨٥.

الحركات، ولعل الأبجدية الإغريقية تطورت هي الأخرى منها، والتي صارت دورها فيما بعد أساس الأبجديات الإغريقية الأوربية وحتى يومنا هذا، وعليه فقد انتشرت فكرة الأبجدية وبسرعة قياسية حول جميع مناطق البحر المتوسط، لاسيما على خطوط المسارات التجارية للفينيقيين، وهذا يعود إلى سهولة استخدامها العملي فضلاً عن إمكانيتها التعبيرية التي يمكن ملاحظتها بشكل واضح ضمن مجموعة النصوص النقشية لدويلة يأدي (سمأل). وابتدأ الملوك اللاحقون من القرن التاسع وحتى القرن الثامن قبل الميلاد باستخدام نظام الأبجدية لنشر أو إصدار أو تحرير شؤونهم الرسمية باللغة الآرامية وبأساليب جديدة متطورة، إذ يعتقد أن الكتاب استخدموا الفرشاة الملونة في تدوين النصوص، وعليه فهي تقنية يمكن عدّها تطوراً جديداً في مجال الكتابة، حيث تجسد هذا النوع في أمثلة عديدة من الكتابة المائلة، وهي في الحقيقة نصوص نقشت على بلاطات أرضية من مدينة حماه تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ومن الملاحظ فإن بعض الحروف لهن شبه من حروف اللغة العربية الجنوبية، وخير مثال هو اكتشاف أجزاء من نقش دير علا المكتوب بالحبر الأسود، حيث جعل الإطار والعنوان فضلاً عن المقاطع الهامة بالحبر الأحمر، وثبت هذا النقش على جدران دير طليت بالكلس، واكتشف هذا النقش عام ١٩٦٧ في وادي الأردن عند مصب نهر الزرقاء (بيوق قديماً)، وتتحدث لغة النقش عن رؤيا تلقاها أحد الأنبياء يعرف باسم: بلعام بن باعورا، ورد ذكره أيضاً في العهد القديم العدد ٢٢-٢٤، كما في الصورة:



ويعرف بإسم نقش تل دان، إنّ ممّا لا شك فيه هو أن لغة النقش آرامية متأثرة بالكنعانية، ويرى بعض الباحثين أنها لهجة كنعانية قريبة من العمونية ليس إلا. ولسوء الحظ، فإنّه عند قراءة نص هذا النقش يكاد يكون المعنى غالباً غير مترابط ومنطقي بين مفردات النص الأساسية، وهذا يعود إلى عدم اكتمال كتابة السطور.

وعليه، فقد بدأت اللغة الآرامية تحيد تدريجياً وبخطوات واسعة عن مجموعة اللغات الكنعانية المعاصرة لها آنذاك، لتكوّن لها طريقاً مستقلاً بها، لاسيما في إطار السياق المعجمي والصوتي ثم الصرفي، فهي أظهرت وبيّنت منذ البداية خصائص

5 Garbini, *Introduzione all'epigrafia semitica*, Brescia, Paideia, 2006, pp. 43-60.

لهجية واضحة جداً ذات طبيعة محلية. ويمكن ملاحظة جميع هذه الاختلافات ليس من خلال مقارنة أشكال الحروف الأبجدية بين الآرامية والكنعانية فحسب، بل أيضاً من خلال أسماء العَلم الآرامية التي زودتنا بها النصوص المسمارية الآشورية البابلية، والتي دونت على شكل مقاطع صوتية متمثلة بالسواكن والحركات. إن استخداماً لنظام متكامل متعدّد اللغات والعلامات يعد بحد ذاته انجازاً علمياً كبيراً لحقبة الثلاثين عاماً الماضية من البحث العلمي في هذا المجال.

ولتمييز النظام الصوتي في اللغة الآرامية سنقوم بتوضيحها لكم باختصار. تمكنت الآرامية من اختصار ثلاثين علامة مسمارية مثلت الأبجدية الأوغاريتية إلى ٢٢ حرفاً فقط. ومن هنا تتبين لنا بعض التطورات الصوتية بين لغات هذه المجموعة، لاسيما في أصوات ما بين الأسنان والصفيرية أو الأسنان الاحتكاكية، فمثلاً: حرفي الذال المجهورة والثاء المهموسة في الأمورية أصبحا في الفينيقية والعبرية على التوالي، زاي، شين. بينما الأصوات ما بين الأسنان الانفجارية، مثل: الطاء والضاد فلهما حضور متقطع في الأوغاريتية، حيث تختزلهما الكنعانية تماماً إلى صوت الصاد الصفيري، أما الطاء الرخو/ المهموس، فتحول إلى صوت الطاء المهموس/ المهموز، أما فيما يتعلق بحضور الضاد في السامية الأم فلعله تخلخل بسبب عجز حصل في النظام الصوتي الأموري سببه فقدان المترامن لصوت الغين الاحتكاكي/ الشديد، إذ استعاضت عنه الآرامية بحرف القاف، مثل العربية: أرض، العبرية: أرص، الآرامية القديمة: ارق، الآرامية: أرعا، وكأن أصل الصوت الأخير من هذه الكلمة أصله غين، وفي الحقيقة فإن هذه المسألة ما تزال موضع التباس معقد، سواءً من الناحية الشكلية أو الصوتية، حيث يمكن ملاحظة هذه الظاهرة الصوتية في إسم آرامي، وهو آخر ملوك دمشق، فقد ورد في العهد القديم بهذه الصيغة: ر ص ي ن ، بينما دونه الآشوريون في نصوصهم هكذا: (را-خي- / نو) أو (را-قي- / نو)، وهو إسم صفة يعني: محبوب، مقدر، مشتق من الجذر الفعلي: ر ض ي ، وعليه فإن قراءة الإسم يمكن أن

تتأرجح بين الاحتمالات الآتية: ما بين صوت حلقي/ مجهور، وهو العين: رعيان، وما بين صوت مهموس/ احتكاكي: رغيان، أو ربما هو صوت احتكاكي مهموس جانبي.

يعتمد البناء الصرفي للغات السامية على سلسلة أساسية من الأفعال تعتمد نظاماً جذرياً ثلاثياً، وكل فعل ثلاثي تصحبه حركة على الأقل مكونة مقاطع صوتية تعرف بإسم: (مورفيم) تفيد للتعبير عن شتى أوجه المفاهيم والمعاني، وهذه المقاطع الصوتية (مورفيمات) من شأنها أن تعبر وتكشف عن حالة أو حدث معين، وعليه فإن جذراً ثلاثياً مثل: (ك ت ب) يمكن أن نصيغ منه تراكيب فعلية وأخرى إسمية، فمثلاً في الآرامية: كئب، (يفتح الثاني)، فعل يفيد الكتابة، ومن هذا الجذر ذاته يمكن إنشاء صيغة اسمية: كتب، (بكسر الأول)، وهو إسم يفيد مثلاً: كتاب، أو يفيد أيضاً: معنى إسم فاعل: كاتب.

وفيما يتعلق بالإسم فإن في الآرامية حالتان تقليديتان، وهما: ١- حالة الإسم النكرة، ٢- حالة الإضافة وهي بيان علاقة بين إسمين إثنين متجاورين، حيث الإسم الثاني يعرف الأول، مثال: بيت ملكا: بيت الملك. واستحدثت الآرامية حالة ثالثة لتكون بجانب الحالتين السابقتين ألا وهي: ٣- حالة المعرفة، ويتميز بوضع ألف في آخره لتفيد تحديد وتعريف الإسم النكرة، مثل ملكا: الملك، والألف هنا بمثابة أداة تعريفية مؤخرة وليس مقدمة مثلما هو الحال في اللغة العربية و(الهاء) في العبرية. ولابدّ الإشارة هنا إلى أن الحالة الأخيرة، أي، حالة المعرفة لم تذكر في نصوص آرامية (سمال)، وكذلك نصوص دير علا، ولعلّ نشوء ظاهرة حالة المعرفة، أي الألف في آخر الإسم جاءت نتيجة تطور لهجي، أصبح بمرور الزمن إرثاً أو استخداماً شائعاً. ويخلو الإسم في الآرامية من الحالات الإعرابية بسبب

سقوط الحركات النهائية القصيرة وكذلك غياب التمييز الذي احتفظت به الأوغاريتية والكنعانية المعاصرتان للآرامية آنذاك^٦. ويمكن تصنيف الإسم في اللغة الآرامية القديمة من حيث حالته على النحو الآتي:

الإسم المفرد المؤنث المعرفة، الجمع المذكر النكرة، الجمع المذكر المضاف، الجمع المذكر المعرفة، الجمع المؤنث النكرة، الجمع المؤنث المضاف، الجمع المؤنث المعرفة، والمثنى، حيث ندر استخدامه، واقتصر للإشارة إلى أعضاء جسم الإنسان المزدوجة مثل: العينان، الذراعان، اليدين، إلخ. (خير من كتب عن قواعد نقوش الآرامية القديمة هو ديجين:

DEGEN, R. Altaramäische Grammatik, der Inschriften des 10.-8. Jh. v. Chr.

Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, 38,3.

Wiesbaden, Steiner, 1969.

الفعل، يعرض لنا الفعل في اللغة الآرامية نظاماً مطابقاً لما هو عليه في السامية الشمالية الغربية، العمورية والوغاريتية ومسارد تل العمارنة، فهناك تصريفان متعاكسان أساسيان، أما الأول فهو: تصريف اللواحق أو ما يسمى بالكواسع في نهاية الجذر، ودلالته للتعبير عن حدث تم وقوعه، والثاني: تصريف الصدور للتعبير عن حدث غير منتهي.

الصيغ الإسمية، هي صيغ إسمية مشتقة من الفعل وتتمثل بإسمي الفاعل والمفعول سواء المعلوم أو المجهول بالإضافة إلى صيغة المصدر.

٦ للاستزادة حول قواعد الآرامية القديمة انظر مثلاً:

Degen, Altaramäische Grammatik der Inschriften des 10- 8, Wiesbaden, Steiner, 1969.

يعدنا الفعل أيضاً بصيغة فعلية هي الأمر بنوعيه الأمر غير المباشر أو ما يسمى المجزوم الذي يعبر مثلاً عن الطلب، وجميعها تصاغ من المضارع المجرد. ويمكننا من الصيغة الفعلية المجردة اشتقاق صيغ مزيدة بعد إجراء تعديلات متعددة على جذع الجذر الفعلي لتفيد معان مركبة أو جديدة تختلف عما هو عليه الفعل المجرد البسيط، كأن تكون زيادة في الحشو، مثلاً: تضعيف الصوت الثاني من الفعل المجرد أي تضعيف عينه، ومن معانيه: التعدية، التكثر، الصيرورة أو الجعلية والمبالغة^٧.

وصيغة أخرى مشتقة تتم بزيادة ألف أو هاء في صدر الفعل ومن معانيه: السببية والتعدية.

كما وتوجد صيغ فعلية أخرى تصاغ بعد حشو صوت أو تغيير بعض مواقع الحركات لتفيد معنى المطاوعة والمجهولية، ومبدأ الصيغ المزيدة هو في الحقيقة صيغة منتهجة في سائر اللغات السامية الأخرى^٨. والملاحظ إن غالبية هذه الخصائص اللغوية بقيت قائمة خلال حقبة ما قبل الهلنستية وبالتزامن فقد اكتسبت الآرامية مكانة مهمة وانتشاراً واسعاً دولياً، باعتبارها لغة رسمية لبعض دول العالم القديم و ناقل متميز (وإن لم يكن الوحيد من نوعه)، لحضارات الإمبراطوريات اللاحقة، والتي حكمت الشرق الأدنى بأسره، وهي: الإمبراطورية الآشورية، الإمبراطورية البابلية الحديثة والإخمينيه. إلا أن هذه اللغة تعرضت لاحقاً إلى أول تقهقر بسبب الانتشار الواسع والجديد للغة الإغريقية التي أدت بالتالي إلى خلق صيغ لهجية مختلفة بالنسبة إلى الآرامية الوسيطة، وهذا يتزامن تقريباً مع ٣٠٠ ق.م - ٢٠٠ بعد.م، وكذلك إلى الآرامية المتأخرة (٢٠٠-٧٠٠ بعد الميلاد)، وقد أصبحت هذه الأخيرة الوسيلة التعبيرية لمجاميع دينية يهودية ومسيحية و مندائية.

٧ للمقارنة مع سائر اللغات الشقيقة، انظر: موسكاتي، مصدر سابق، ص ١٣٤-١٣٥.

٨ المصدر السابق، ص ١٣٥-١٤٠.

ويمكن تقسيم الآرامية المتأخرة جغرافياً إلى فرعين واضحين هما:

الأول: الشرقي، ويتمثل بالآرامية البابلية أي منطقة وادي الرافدين.

الثاني: الغربي، ويعرف بالآرامية الفلسطينية^٩.

وبسبب الفتوحات الإسلامية للشرق الأدنى بدأت الآرامية بالتقهقر لتحل محلها اللغة العربية، إلا أنها رغم ذلك بقيت شاخصة على شواهد نصية أدبية وطقسية دينية، أي في كتب الصلوات والعبادات الكنسية مثلاً وحتى يومنا هذا، فضلاً عن أنها بقيت مستخدمة كلغة تعبير يومية لأقليات ما تزال تعيش في وسط سوريا، وكذلك ضمن المنطقة الواقعة بين العراق وتركيا وإيران، وتسمى هذه اللغة اليوم بالآرامية الحديثة، أي السريانية، وهي بلا شك تجسد نهضة جزئية مثلت الحضارة الآرامية القديمة التي بلغت عندها ألفها الثالث من النهضة المستمرة الوافرة والمتجسدة اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تقيم طائفة سريانية آشورية ضخمة تتكلم السريانية.

وعلى الرغم من أن الآرامية قدمت تطوراً في نظامها من حيث تعدد فروعها اللهجية، وذلك ابتداءً من القرن التاسع وحتى القرن الرابع الأساسي عبر آلاف السنين، فهي ما تزال مادة قيمة وثرية تحتاج لدراسة وبحث ظواهرها الغامضة.

وقام الباحثون بتقسيم اللغة الآرامية إلى مجموعتين رئيسيتين، وهما: الآرامية القديمة، وهي لغة أكثر النقوش القديمة المستمدة من دمشق وحماه وأربد وسمأل وآشور، وتعود إلى ما بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد. ثم تليها الآرامية الرسمية التي تندرج تحت الآرامية القديمة، وهي اللغة التي استعملتها

٩ بروكلمان، كارل، فقه اللغات السامية، ترجمه عن الألمانية رمضان عبد التواب، جامعة عين

شمس، ١٩٧٧، ص ٢٣-٢٨.

الإمبراطوريات الآشورية والبابلية والفارسية (من القرن السابع إلى الرابع قبل الميلاد)^{١٠}. واتسمت الآرامية بانتشارها الواسع والسريع خلال هذه الحقبة. ونحن نتفق مع رأي الباحث الإيطالي ماريو فالس، ومفاده عدم كفاية وقصور تقسيم اللغة الآرامية المذكور في المصادر، فهو يدعو إلى وضع هيكلية جديدة للآرامية^{١١}، هيكلية تتطلب اليوم وضع تقسيم جديد يعتمد العنصر الجغرافي واللغوي والأدبي، وحجته في ذلك هي اعتماده ظواهر لغوية تقع ضمن النصوص الآشورية - الأكديّة. أذن فهو يقسم الآرامية إلى قسمين رئيسيين، وهما: ١- آرامية أعالي ضفاف وادي الفرات، ومثلتها نصوص ووثائق ذات صفة رسمية وأدبية وقائعية عثر عليها في دويلات آرامية (سوريا)، وتحديدًا خلال حقبة استقلالها عن سيطرة الإمبراطورية الآشورية، ٢- آرامية بابلية رافدية، وعلى الرغم من اختلاف مضامين نصوصها عن سابقتها، فهي تقدم دلائل واضحة تكشف عن تأثرها باللغة الأكديّة (البابلية والآشورية) المعاصرة لها آنذاك، إلا أنها تمكنت خلال الألف الأول بعد الميلاد من التواصل لغوياً مع الآشورية في الشمال، وتمكنت أيضاً من أن تجد لها خطوط اتصال مع البابلية الحديثة في الجنوب، أي أنها لم تنحرف تماماً عن أصلها بل استمرت معه. وقد أظهرت كلتا الآراميتان: آرامية أعالي الفرات والآرامية البابلية، المنتميتان بدورهما إلى آرامية ما قبل الحقبة الإخمينية العديد من الظواهر الجديدة والمختلفة في النظام الصوتي. منها على سبيل المثال تنوعات في نظام أصوات ما بين الأسنان^{١٢}، والأصوات الأسنانية أو في النظام الصرفي أيضاً، وعلى سبيل التحديد نذكر التناوب الحاصل

١٠ موسكاتي، مصدر سابق، ص ٢٥.

11 Fales.F,M, *Lingua Aramaica*,Milano, 2007, p. 404.

١٢ وهي الأصوات التي تخرج بوضع طرف اللسان بين الأسنان العليا والسفلى، وهي التي سميت في العربية بالثوية، وهي الذال والناء والظاء.

بين علاقة المضاف والمضاف إليه والأداة (زي ، دي)، و كذلك التنوع الحاصل في نظام الجملة، أي في مواضع الفاعل والمفعول به، والفعل في سياق الجملة، وفي الأعم الأغلب، فإنّ سياق الجملة الطبيعي يركب على النمط الآتي: (فعل + فاعل + مفعول به) ، أو (فاعل + فعل + مفعول به)، ونرى تأثير الأكدية في نظام جملتها واضح تأثيره على الآرامية، وكما هو في الترتيب الآتي: (فاعل + مفعول به + فعل) ¹³.

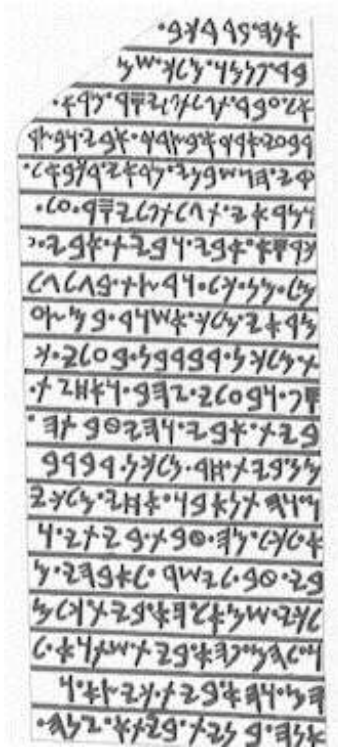
وينبغي أن نذكر أيضاً بأن الآرامية اقترضت العديد من المفردات من شقيقتها الأكدية.

وإذا ما ألقينا نظرة تاريخية على آرامية النصوص النقشية المتوفرة لدينا اليوم، والتي تعود إلى ما قبل العصر الإخميني بين منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ونهاية القرن الثالث عشر، والتي يصنفها لنا ماريو فالس بإسم آرامية أعالي الفرات، فإننا سنجدها تمدنا بسلسلة من الكتابات النقشية التي كتبت بحروف أبجدية على مواد صخرية، غالباً ما تكون على شكل مسلات أو نُصب تذكارية مضمونها نصوص رسمية، عليها إمضاء أو ختم ملوك بعض الدويلات الآرامية، مثل: نقش زاكور ملك حماه - لوش، ويعود تاريخه إلى حوالي ٨١٠ ق.م^{١٤}، نقش ماتيبيل ملك اربد - بيت اكوشي (حوالي ٧٥٠ ق.م ، وهذا النقش هو عبارة عن ثلاث

13 F.M.Fales, *Most Ancient Aramaic Text and Linguistic: A Review of Recent Studies*, in (*Incontri Linguistici*), 19, 1996, pp. 33-57.

14 Schwiderski. D, *Die alt-und reichsaramaischen Inschriften*, Berlin-New York, de Gruyter, vol. 11, p.422.

مسلات مصدرها منطقة (سفير)، تضمنت معاهدة سياسية، ثم هناك نقش بر ركب ملك سمال (حوالي ٧٣٥ ق.م)١٥، كما في الصورتين التاليتين:



وامتازت السياسة الآرامية عبر مملكة دمشق في النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد بالقوة والمهارة وهذا ما أثبتته لنا بشكل واضح النصوص الآشورية والعهد القديم، وتعد مسلة الملك بر هد الوثيقة الوحيدة التي وصلتنا من

15 ibid, pp, 402-406.

منطقة حلب والتي توثق مراسيم احتفال بر هدد منصباً نفسه ملكاً على آرام^{١٦} ، ثم مسلة آرامية أخرى غير كاملة تسرد لنا احتفال الآراميين بانتصاراتهم على إسرائيل، وتم العثور على هذه المسلة في غضون السنوات الأخيرة في منطقة تل دان ، وعلى الرغم من الشكوك القائمة والقائلة بأن نقش تل دان لا يشير إلى احتلال وانتصار الآراميين بقيادة الملك الأكثر قوة، وهو حزائيل (حوالي ٨٣٠ ق.م)، فإننا نجد على أية حال اسم هذا الملك مذكوراً على أحد النقوش المقتضبة، والتي كتبت على سلسلة من واقيات زخرفية تجميلية توضع على جبهات الخيول سواء أكانت مادتها من البرونز أو العاج عثر عليها في عدد من المعابد الإقليمية على بحر ايجيو – اريتريا، وكذلك في منطقة ارسلان طاش الواقعة في شمال سوريا^{25١٧}. وأخيراً هناك نصوص مشابهة مثل بوكتوس تضمنت طابعاً رسمياً، عثر عليها ضمن أعالي منطقة الفرات، إلا أن مصدرها من منطقة تختلف تماماً عن مناطق انتشار اللغة الآرامية الطبيعية، حيث تم العثور على مسلة أو لوح غير كامل في منطقة بوكان في الشمال الشرقي من إيران، ويعود تاريخه إلى حوالي منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والنص فيه أمران غامضان وهما مجهولية شخصياته الواردة، ومضمونه التاريخي غير الدقيق^{١٨}.

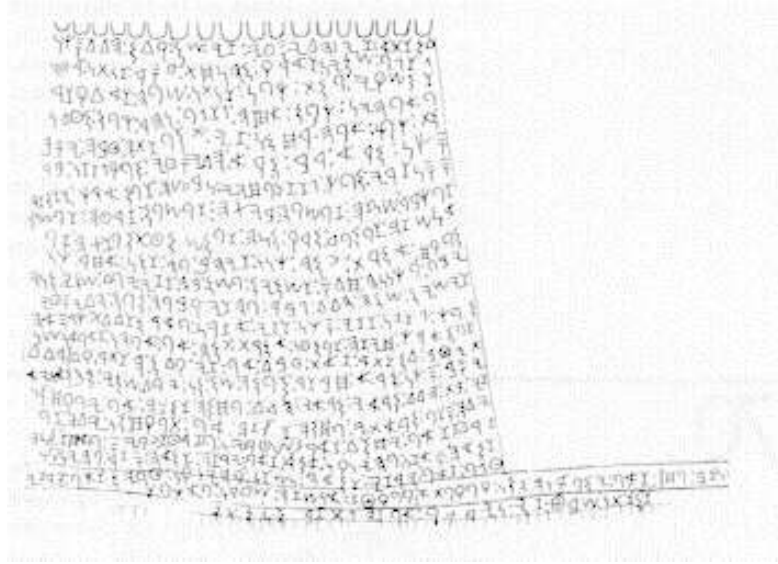
16 ibid, pp.41,202.

١٧ للمزيد انظر:

F.M.Fales, Evident for West-Est Contacts in the 18th Century BC: the Bukan stele, in Continuity of Empir (?): Assyria, Media, Persia, Padova, Sargon, 2003,pp.131-148.

نقش تل الفخيرية

الوثائق التاريخية تعد بلا شك شهادة حياة للأمم الحاضرة والسابقة، وقد ترك لنا الآراميون كمّاً ثرياً من هذه الوثائق، نذكر منها، نقش تل الفخيرية كما مبين في الصورة التالية:



نص نقشي رافدي تميز بطابعه الرسمي، ويعد أقدم نقش آرامي، النقش بحوزتنا حتى اليوم^{١٩}، عثر عليه عام ١٩٧٩ بالصدفة عندما كان أحد الفلاحين يحرث الأرض بين الحدود السورية التركية، وتسميته نسبة إلى تل الفخيرية الواقع على بعد ٨٥ كم شمال غرب مدينة الحسكة، وعلى بعد ٢٠٠ كم فقط جنوب مدينة

١٩ يعد النقش الآرامي المعروف باسم: تل حلف (كوزان قديما) أقدم نقش آرامي اكتشف عام ١٩٣١ ويعود تاريخه إلى نهاية القرن العاشر أو بداية القرن التاسع قبل الميلاد، إلا انه للأسف فقد بسبب قصف مدينة برلين خلال الحرب العالمية الثانية.

رأس العين الحالية في سوريا، وهو عبارة عن تمثال من مادة البازلت الرصاصي، وقد نقش عليه نص ثنائي اللغة (آرامية - آشورية) نقش على مقدمة التمثال بين المحزم وأهداب الثوب، يبلغ ارتفاع التمثال الكلي ٢٠٠ سم، أما عرضه فيبلغ ٥٠ سم عند الكتفين، و٣٥ سم عند الحزام^{٢٠}، ويتألف من ٣٨ سطراً كتبت بالأكديّة - الآشورية، و ٢٣ سطراً بالآرامية. يعود تاريخه إلى حوالي ٨٧٠ ق.م، النص مكرّس إلى إله العواصف، ويشير إلى الملك هدد يسعي حاكم منطقة (كوزان) الذي عين أثناء حكم شلمنصر الثالث. كتب النقش على جهتين متقابلتين للتمثال، ولعل كتابة النقش مرت بمرحل مختلفة من الزمن، ومن الملاحظ في الجزء الأول، إن الآرامية قلدت اللغة الأكديّة بشكل واضح، حيث اتسم أسلوب لغة نص رصينة، وهي لغة النقوش الرسمية للأشوريين، أما الجزء الثاني، فيعد الشاهد الأكثر وضوحاً من حيث التبادل الحر في التأثيرات بين الآرامية واللهجة الآشورية الحديثة المستخدمة في النصوص القضائية والإدارية للإمبراطوري^{٢١}.

ونستخلص من هذا، أن تمثال تل الفخيرية وبنصه ثنائي اللغة، ما هو إلا خير شاهد يبين جميع سمات التقارب المثمر والتلاحق اللغوي الحضاري بين اللغتين الأكديّة والآرامية خلال حقبة الإمبراطورية الآشورية.

وفي الحقيقة فإن الإمبراطورية الآشورية لم تكتف في فرض قوتها العسكرية على الأراضي التي كانت تقع تحت سيطرتها فحسب، بل أنها فرضت اللغة الآشورية المعاصرة آنذاك، ناشرة بذلك تراث التقاليد الحضارية السومرية - الأكديّة المتعددة، والأمر لا يقل أهمية بالنسبة إلى اللغة الآرامية، حيث احتفظت

٢٠ أبو عساف، علي: دمية الملك هدد يسعي ملك جوزن، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، مجلد ٣٢، ١٩٨٢، ص ٣٥-٥٨.

٢١ للاستزادة انظر ما كتبه ماريو فالس في :

Fales.F.M, *le double bilinguisme de la statue de Tel Fekheriye*, in "Syria", 40, 1983, pp. 233-250.

بنظام لغة حديث وظفته لاستخدامات عملية وتجارية ضمن المناطق الواقعة شمال غرب وادي الرافدين، حيث كانت تسكنها في ذلك الوقت مجاميع آرامية ارستقراطية. ذلك النظام أصبح فيما بعد راسخاً ومنتشراً ضمن نطاق واسع جداً. وأخيراً أودّ تقديم جزيل الشكر والتقدير إلى دار المشرق الثقافية التي طالما شجعت على البحث والدرس العلمي النافع، وأخص بالشكر والتقدير الأب شليمون إيشو خوشابا رئيس التحرير على دعمه وتشجيعه. كما وأشكر كذلك القائمين على هذه الدار المعطاء.

أخيراً، أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل مفيداً للقارئ الراغب في معرفة المزيد عن حضارتنا الرافدية العريقة، إنه سميع مجيب الدعاء.